بين كارلايل وإمرسن

من مأثور أقوال المتنبي فى شكوى الدهر قوله : –

أبى خلق الدنيا حبيباً تديمه فما طلبى منها حبيباً ترده

وخلق الدنيا الذى يأبى دوام الأحبة والمحبة ، يأبى كذلك دوام الأصدقاء وبقاء الصداقة وبخاصة بين رجال الآداب والفنون ، ولذا تعد الصداقات الطويلة المدى القوية الأواصر فى التاريخ الأدبى من الأشياء النادرة ، وفى سنة ١٨٣٣ ، نشأت صداقة أدبية من أمثال هذه الصداقات القليلة بين الكاتب البريطانى الكبير توماس كارلايل والكاتب الأمريكى الجليل الشأن الذائع الصيت رالف والدوإمرسن ، ولو لم يقع فى تلك السنة من الحوادث الهامة الجديرة بالإشارة إليها سوى هذا الحادث لكان وحده جديراً بتخليد ذكرى تلك السنة ! .

وكان كارلايل فى السنة السابقة قد فجع بفقد والده ، وفجع بعد فقد والده بفقد أستاذه جيتى ، وأقام مع زوجته فى ناحية موحشة منعزلة فى أسكتلندة تسمى «كراجينبتك» ، وفى يوم من أيام الخريف ، وقد جلس كارلايل فى داره يجيل فكره فى موضوع «العقد الماسى» الذى جمع مواده ، وأخذ يتأهب للكتابة فيه ولكن برغم محاولته وإحاطته بتفصيلاته لم يتسق له الموضوع ولم يسلس قياده ، وقد ضايقه ذلك ، وساءه أن يتأبى عليه الموضوع ، وتستعصى الكتابة .

وبينما هو يعانى هذه الحيرة التى يعرفها أصحاب الأمزجة الفنية حينما

يتسرعون فى تناول موضوعاتهم قبل أن تحفل بها خواطرهم ، وتمتلىء شعاب نفوسهم ، سمع صليل عربة تقف عند باب داره وينزل منها شاب أمريكى يحمل كتاباً من ستيوارت ميل – وكان فى هذه الفترة من أصدقاء كارلايل المعدودين إذا لم تكن النبوة قد وقعت بينهما بعد – يقدمه فيه لكارلايل .

وكان هذا الشاب الوافد على كارلايل فى هذه الناحية النائية المهجورة هو إمرسن ، فقد قرأ لكارلايل وهو فى أمريكا الفصول الأدبية التى أذاعها فى بعض المجلات الإنجليزية ، وأعجب بها ، وتركت فى نفسه أثراً بالغاً ، فلما جاء لزيارة أوربا عنى بزيارة إنجلترا ، وحرص بوجه خاص على لقاء كارلايل ، وقد كتب كارلايل عن هذه الزيارة فى يومياته يقول[١] : «لقد غودرت هنا أشد الناس وحشة وأقلهم ناصراً ، مهجوراً من الأصدقاء كما كنت مدة سنوات ، ثم جاء هذا الرجل ليرانى ، ولست أدرى ما الذى بعثه على المجىء ، وقد أبقيناه عندنا ليلة ، ثم غادرنا بعد ذلك ، ولقد رأيته وهو يصعد الجبل ، ولم أذهب معه حتى لا أراه وهو ينحدر من فوق الجبل ، فلقد آثرت أن اراقبه وهو يصعد ويغيب عن ناظرى كما تختفى الملائكة» .

وبعد أن مر على هذا اللقاء سنتان كتب كارلايل إلى إمرسن ضمن رسالة «سنظل طويلاً نذكر يوم الأحد من ذلك الخريف الذى زرتنا فيه فى كراجينبتك النائية الموحشة ، ولقد غادرتنا ولكنك لم تتركنا كما وجدتنا» .

وفى نوفمبر سنة ١٨٣٨ كتبت السيدة جين ولش – زوجة كارلايل – فى حاشية كتاب من زوجها لأمرسن تقول «إذا لم يكن هناك شىء يذكرنا بك فإننا لن ننسى ذلك الزائر الذى نزل علينا وكأنه هبط من السماء ، وكان اليوم الذى قضاه عندنا يوماً ساحراً جعلنى أذرف الدمع لأنه لم يكن سوى يوم واحد» .

(١) صفحة ٢ من الجزء الأول من كتاب مراسلات توماس كارلايل ورالف والدوإمرسن .

وقد تركت هذه الزيارة فى كراجينبتك أثراً لا يزول فى نفس كارلايل ؛ ففى رسالة كتبها إلى إمرسن بعد مرور ثلاث عشرة سنة على هذه الزيارة كتب كارلايل إلى إمرسن يقول «آه يا صديقى أى حقيقة عجيبة خيالية عالمنا هذا الضخم الهائل وحياتنا ! أتذكر كراجينبتك والأمسية الهادئة التى قضيناها بها ؟ إن الدموع لتطفر من عينى إذا كان هذا من عادتى ! ولكن هذا غير مجد» .

وأول كتاب فى سجل هذه الصداقة النبيلة كتبه إمرسن فى ١٤ مايو سنة ١٨٣٤ بمدينة بوستن ، وفيه يقول «بعض الأغراض التى نرمى إلى تحقيقها نرجئها طويلاً لمجرد أنها أسمى مكانة فى نفوسنا من أغراض أخرى ، وقد كنت أريد تحقيق أحد هذه الأغراض منذ أسابيع ، بل منذ أشهر ، وهذا الغرض هو كتابة رسالة إليك ، وقد حملت إلى إسمك بعض رياح الشهرة ، وربما كان ذلك منذ عامين باعتبارك كاتب فصول فى مجموعة من المجلات الدورية الإنجليزية ، وهذه الفصول هى أعمق ما قرأت فى هذا العصر وأكثره طرافة وأصالة ، وهى كتابة رجل له يقين وله عقل . . وقد جذبتنى جواذب الرعاية والاحترام لأحد أساتذتى فذهبت لأرى شخصه . . .

«ولما عدت إلى وطنى أعدت على الكثير من الآذان المصغية ما رأيت وما سمعت وقد تلقوه بسرور وارتياح . . وقد تسلمت أربعة أعداد من كتاب «فلسفة الملابس» وأشكرلك دائماً ما أفاضه علينا من النور . . وإنه لمن الخير أن يكون عندنا عين جديدة تبحث أحوالنا الاجتماعية والسياسية ومدارسنا وديانتنا .

وبعد كتابة هذه الرسالة بزمن قليل كان كارلايل قد انتقل من كراجينبتك إلى لندن ، ومن لندن أرسل فى ١٣ أغسطس سنة ١٨٣٤ الرد على هذه الرسالة وقد تناول فيه الحديث عن كتابه «فلسفة الملابس» وفيه يقول لإمرسن «من الجانب الإنجليزى لمياه المحيط الأطلسى لم أتلق سوى استجابة واحدة صادقة

واضحة ، ولو أنها متحمسة مثل استجابتك» وفى ختام الرسالة يقول له : «أرجو أن تظل محبا لى أنت وغيرك من أصدقائنا» .

وكان إمرسن يعتقد أن الشبان فى أمريكا وفى إنجلترا قد يرون فى حياتيهما ما يشجعهم ويرفع من مستواهم ، ولذا كتب فى ٧ أكتوبر سنة ١٨٣٥ إلى كارلايل يقول «لتعتقد حينما ينال منك الكلال والاعياء أنك وأنت الذى تبعث القوة فى نفوس أفاضل الشبان ، وتدخل السرور على قلوبهم لا يمكن أن تكتب سطراً واحداً عبثاً ، ومهما يكن ما يصيبنا فى المستقبل فليس هناك أفضل من أن نكون قد أيقظنا حاسة الجمال العذبة فى نفوس الكثيرين ، وأن نكون قد ضاعفنا عندهم شجاعة الفضيلة» .

وكان إمرسن يشعر بتبعته فى الحرب المعلنة على نزعة العصر المادية ، وكان يشجعه على البقاء فى الميدان استجابة الكثيرين لدعوته ، وتقديرهم لجميله ، وكان يرى فى كارلايل أخاله يجاهد فى الميدان نفسه . ويحارب النزعة المادية .

ولكن إمرسن كان قانعاً بالحياة راضياً عنها ، على خلاف كارلايل الذى كان دائم السخط والتشكى ، وفى إحدى رسائل إمرسن إليه نلمح اطمئنان إمرسن إلى حياته المنزلية ، وحبه لأسرته وثناءه على زوجته ، وتعلقه بطفله الصغير «والدو» الذى يقول عنه فى تلك الرسالة «إن ابنى قطعة من الحب والضوء تستحق أن أراقبها من الصباح حتى إقبال الليل» .

وهو يعيد الكلام عن هذه القطعة من الحب والضوء فى رسائل أخرى ، وفى إحدى هذه الرسائل يقول «لقد بلغ طفلى الصغير الخامسة من عمره اليوم ، وهو يرسل إليك تحية الحب» .

ولكن لا ينقضى على كتابة هذه الرسالة أربعة أشهر حتى يصاب هذا الوالد

الحنون العطوف فى ابنه العزيز ، فتعظم فجيعته ، ويشتد حزنه ، فيكتب إلى صديقه وهو فى غمرة الأسى قائلا «لا تستطيع أن تسعدنى وتواسينى ولا تستطيع أن تعرف كم أخذ منى مثل هذا الطفل ، وطالما أملت نفسى مسروراً بأننى فى ذات يوم سأرسل إليك نجم صباحى هذا وأظل فى دارى فرحاً وراء هذا الذى يمثلنى عندك ، وزوجتى البائسة تئن وتتوجع آناء الليل وأطراف النهار ، وأنت كذلك ستحزن من أجلنا على بعد الشقة ونأى المزار» .

وقد أثر فى نفس كارلايل مصاب صديقه فكتب إليه مواسياً «لقد نزع منك ابنك الأبلج الصغير ، وهو أثمن ما تملك ، ولكن فى الحق أنه مع الله فهو حى مثلنا ، ومن المؤكد أنه يعيش على خير ما يراد له ولك ولنا جميعاً ، وإنى أعرف ما تعانى والدته من الحزن ، ولا أستطيع أن أقول لها كلمة عزاء وفى اعتقادى أن مثل هذا الحزن الشديد الصامت لا يزور سوى الأمهات اللواتى أصبن بفقد أبنائهن ، وإن فقد العصفور الصغير فى عشه لصغاره ليثير عطفنا فما أشد فجيعتنا لمصاب أصدقائنا فى أبنائهم ! إننى لا أستطيع أن أنصح والدته بالتسلى والسلوان ، وعسى الله أن يلطف من حزنها ويرزقها العزاء ، وكما قال داود «إننا سنذهب إليه وهو لن يعود إلينا . . .»

وأرسل إمرسن أحد كتبه الجديدة التى تجلت فيها بوادر عبقريته إلى كارلايل فتلقى منه رسالة تشجيع يقول فيها «لقد ذكرت فى كتابك أنه الفصل الأول من شىء أكبر وأوفى . ولكنى أقول إنه الأساس والتصميم الذى تستطيع أن تقيم عليه ما أعطى لك من الأشياء الصادقة العظيمة ، ولقد سرت نفسى نظرتك الهادئة لهذه الدنيا العجيبة التى نعيش فيها معاً» .

وأعجب كارلايل بإحدى المحاضرات التى ألقاها إمرسن وأرسل إلى كارلايل صورة منها ، فكتب إليه يقول «يا صديقى ! إنك لا تعرف ما صنعته من

أجلى ، لقد مضت عشرات السنوات وأنا لا أسمع حولى سوى اللفظ والثرثرة والكلام الغث التافه المملول ، حتى سئمت نفسى ويئست من استماع الكلام المبين . وها قد ترامى إلى سمعى من ناحية الغرب الصوت الواضح الجلى ، صوت رجل عرفت فيه القرابة والأخوة ، فالحمد لله على ذلك ، لقد بلغ حديثك من نفسى مبلغاً ، ورن صداه فى قلبى ، وقلت لزوجتى «إليك أيتها المرأة ، فقرأت المحاضرة وقد كلفتنى أن أقول لك إنها لم تقرأ مثلها منذ وفاة شلر ، فلله درك من رجل ! وإنى لأرجو الله أن يهبك القوة لأنك تروم عظيماً ، وتحاول أن تنهض بعمل خطير ! » .

ولما أتم كارلايل كتابه عن «الماضى والحاضر» كتب إلى إمرسن يقول له «إنه نبذة حارة ملتهبة يصح أن تكون موضع التساؤل ، ولا أدرى هل تصلح لتكون مقدمة للكتاب الذى أنوى كتابته عن أوليفار كرومويل» ولكن مهما يكن من الأمر فإن هذا الكتاب قد نما بالتدريج ليكون مقدمة لكل ما أريد عمله» .

ولما اطلع أمرسن على هذا الكتاب كتب إلى كارلايل ضمن رسالة «ولكن هذا الكتاب بما فيه من فكاهة ونفاذ وإشارات جريئة قد ولد ليعمر طويلا ويعيش سنوات لا أستطيع الآن عدها» .

وقد كانت مؤلفات كارلايل التاريخية ثمرة المجهود المضنى والعمل الشاق ، وكانت رسائله إلى إمرسن فى بعض الأحيان تنم على ما يعانى من الألم وما يبذل من الجهد ، أما إمرسن فقل أن نجد فى رسائله نظيراً لهذه الشكوى ، وقد أدهش كارلايل صبره هذا حتى قال فيه : «إننى أعلن أننى فى بعض الأوقات يعروني الخجل ، وأعجب من أين استحضر إمرسن الطيب كل هذا الصبر» .

وقد كتب إلى إمرسن فى أثناء عكوفه على إنجاز كتابه العظيم عن الثورة الفرنسية يقول : «إنك لا تستطيع أن تتصور الحالة النفسية التى أعانيها ، وفكرة

واحدة قد تملكتنى ، وهى « هذا الكتاب » هذا الكتاب المتعب الذى يشغلنى بغير انقطاع . . . وفى الوقت الراهن إنه فى الواقع مثل قميص نساس الخرافى يكاد يخن لابسه ، وهو لذلك مثل الدرع السابغة يجعلك بمنجاة من الطعنات ، ولا يشعرك بسائر الأضرار الأخرى ، وسأنتهى من هذا الكتاب غير المبارك فى مدى شهرين ، وأصبح رجلا حراً ، ويبدو لى أننى سأجد حينذاك سعادة لم أشعر بمثلها ، ومع ذلك فإنه يجب ألا أقول عن هذا الكتاب إنه غير مبارك ، فلقد تمنطقت به مثل الدرع مدة سنتين أتقى به الطعنات غير مبال بأشياء كثيرة » .

وقد أصيب هذا الكتاب الذى زف كارلايل إلى صديقه إمرسن بشرى قرب الإنتهاء منه بكارثة لم تكن فى الحسبان ، وقد قابل كارلايل هذه الكارثة بصبر عجيب وتجلد غير عادى ؛ وهذا ما كتبه لصديقه إمرسن عن هذه الكارثة غير المنتظرة « استعار أحد الأصدقاء أصول الكتاب – وهو صديق عطوف رفيق ولكنه صديق مهمل – ليكتب ملاحظات عليه ، وفى ذات مساء منذ شهرين جاءنا هذا الصديق مرتبكاً والهاً مستطار اللب ، فقد ترك الأصول بغير عناية فمزقت جميعها على أنها نفاية أوراق لا لزوم لها ، ولم يبق منها سوى ثلاث أو أربع ورقات ولم يكن هناك مجال للشكوى فقد بدا لى الرجل المسكين فى حالة من يهم بقتل نفسه ، وكان من واجبنا أن تجمع إلينا أطرافنا ونلين معه ، ونطيب خاطره ، ولحسن الحظ أننا استطعنا ذلك برغم ما فيه من صعوبة » .

وهذا الصديق العطوف الرفيق الذى كان إهماله سبب وقوع هذه الكارثة هو الفيلسوف الإنجليزى الكبير المعروف والمفكر الممتاز استيوارت مل ، وكان حينذاك من أصدقاء كارلايل المقربين .

وفى خلال الرسائل التى تبادلها كارلايل وإمرسن إشارات كثيرة إلى معاصريهما من مشاهير الكتاب والشعراء والمفكرين والسياسيين البارزين المعروفين ، مثل

برونتج ووردزورث وثوذى وجلادستون ولاندور ، ومما يؤسف عليه أن كارلايل كان كثير الوقوع فى معاصريه ، ولم يسلم من سخريته وتهانفه فى هذه الرسائل ويظفر بالتقدير الخالص والثناء المحض من معاصريه سوى الفريد تنيسون وصديقه جون استيرلنج الذى رأى كارلايل أن يفرد كتاباً للحديث عن مناقبه ، وذكر أخباره وحوداث حياته .

وفى بدء معرفته لجون استيرلينج هذا كتب إلى إمرسن يقول : «يوجدهنا رجل اسمه جون استيرلنج أحببته أكثر من حبى لأى إنسان منذ هبط إلى رسول خاص من السماء فى كراجينبتك (يشير فى ذلك إلى زيارة إمرسن له) واختفى فى السماء الزرقاء بعد ذلك ، وقد تدله هذا الرجل بحب والدو إمرسن ، وهذا كل ما يمكن أن يقال ، وقد رأى عندى كتيبك عن الطبيعة وأبصر ما فيه ونفذ إلى أعماقه ، وحمله معه إلى ما ديرا التى نصحه الأطباء بالذهاب إليها» .

وفى سنة ١٨٧٣ التقى الصديقان اللقاء الأخير ، وانقطع تبادل الرسائل بينهما بعد ذلك ، وقد شغل كل منهما بمتاعب شيخوخته ، وأصبح يجد صعوبة فى كتابة الرسائل ، وقد مات كارلايل فى يوم ٥ فبراير سنة ١٨٨١ ، وتبعه إلى القبر إمرسن فى يوم ٢٧ إبريل سنة ١٨٨٢ ، وبالرغم مما كان بينهما من اختلاف فى الأمزجة والطبائع والخلائق والشمائل ظل ما بينهما عامراً طوال حياتيهما ، ولم تشب ودهما شائبة ، ولم تغش سماء صداقتهما سحابة حتى ولا سحابة صيف ، وما أندر ذلك فى الصداقات الأدبية ، بل فى الصدقات الإنسانية بوجه عام ، فهل السر فى بقاء هذه الصداقة سليمة نقية خالصة أن المحيط الأطلسى – بحر الظلمات – كان يفرق فى معظم الأوقات بين الصديقين ؟ وهل قلوب الأصدقاء لا تتقارب ونفوسهم لا تتعادى ولا تتحارب إلا إذا شط المزار وتباعدت الديار ؟ قد يكون ذلك ، وقد يكون فى البعد جفاء كما يقول أكثر الناس .